أنوار السُّنَّة المُحمديَّة
شرح رياض الصالحين (٨)
باب الصبر (٣)

الشيخ أحمد السيد.

عطاء
البناء المنهجي

الفهرس

المقدمة: ٣

اختيار أحاديث الباب: ٣

الحديث السابع: "مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ..." ٤

الفوائد: ٦

الصبر عند الصدمة الأولى: ٦

سهولة الوصول للنبي ﷺ: ٧

النصيحة: ٧

الحديث الثامن: "ما لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ..." ٨

الحديث التاسع: "...فليسَ مِن عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا، ..." ٩

إعادة تصحيح المعايير: ٩

الحديث العاشر: " ...إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ،... " ١٤

الجانب العام الذي ورد في أصل العمل: ١٤

الجانب الخاص بالثواب المتعلق بفروع من هذا العمل. ١٤

الحديث الحادي عشر: "...أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجَنَّةِ؟..." ١٦

الحديث الثاني عشر: "... رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ..." ١٨

الحديث الثالث عشر: " ... "ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ،..." ١٩

الخاتمة ٢٤

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا تبارك وتعالى ويرضى، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة، ولك الحكم وإليك المصير، اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد.

نستعين بالله ونستفتح مجلسًا جديدًا من مجالس رياض الصالحين وهي مرتبطةٌ بالعنوان الذي نبهت عليه أكثر من مرةٍ في بداية رياض الصالحين وهو: عنوان "الاستهداء بالسنة"، وكذلك عنوان "أنوار السنة المحمدية"، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا حسن الاتباع للنبي ﷺ وحسن الفقه لسنتهِ وسيرتهِ وهديهِ عليه صلاة الله وسلامهُ.

اختيار أحاديث الباب:

لا زلنا في باب الصبر، وحقيقةً يقف الإنسان مشيرًا إلى حسن اختيار الإمام النووي -رحمه الله تعالى- حُسنَ جمعه للأحاديث، وحتى حسن ترتيبهِ للأبواب، وهذا أشرتُ إليه في اللقاء الماضي. لكن حُسن اختيار الأحاديث داخل الباب الواحد لا يكون إلا من شخصٍ عالِمٍ بالسنة النبوية؛ لأن معرفة ارتباط الأحاديث بعنوان معين لا يكون فقط بالطريقة المباشرة.

أنت الآن مثلًا إذا أردت أن تُحضِّر موضوعًا عن الصبر فتريد أن تأخذ الأحاديث عن الصبر؛ كيف تأتي بها؟ ومن أين تأتي بها؟ الآن مع الأمور الحديثة يمكنك أن تكتب لفظ (الصبر) في محركات البحث، ويمكنك رؤية البحوث التي كُتبت عن الصبر في السنة النبوية والمواقع اللي تجمع عن مثل هذه الموضوعات، وهكذا...

لكن حقيقةً العلماء الذين يجمعون مثل هذه الأحاديث ويكون لديهم عناية بالحديث النبوي؛ تبرز لديهم بعض الأحاديث غير مباشرة لكنها مرتبطة بالصبر، فهذه تكون بالحفظ وبحُسن الفهم والاطلاع.

وهذا ما أؤكد عليه: في أهمية أن يكون للإنسان اطلاعٌ شاملٌ على السنة النبوية الصحيحة؛ لأن الفائدة هي بروز مجموعة من الأحاديث لك تستفيد منها ما لا تستفيده من كثير من الكتب؛ لأنها تأتي في غير مظانها. وهذه قضية في غاية الأهمية، وإذا كانت القضية ليست مجرد اطلاعٍ؛ وإنما حفظ كذلك لأهم أحاديث السنة النبوية، فهذا كذلك أفضل بكثير جدًا، وهو ليس لأي أحد وإنما للمشتغل بالعلم ثم بعد ذلك بالعطاء والتدريس ونفع الناس.

على أية حال هذا هو اللقاء الثامن من لقاءات هذه السلسلة والحديث عن الصبر بعد قصة الغلام الطويلة.

الحديث السابع: "مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ..."

قال النووي -رحمه الله تعالى-: وعن أنس رضي الله عنه قال: "مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقالَ: اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي قالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقِيلَ لَهَا: إنَّه النبيُّ ﷺ طبعًا فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي ولَمْ تَعْرِفْهُ -أي: لم تعرف النبي ﷺ- فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتَتْ بَابَ النبيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى". [صحيح البخاري/ ١٢٨٣] وفي رواية: "تبكي على صبيٍّ لها" .[صحيح مسلم: ٩٢٦]

الأمر الأول: من حيث ارتباط هذا الحديث بباب الصبر واضحٌ، والإضافة التي فيه من ناحية مبدأ الصبر في الإسلام وأن هناك مقاماتٌ وهناك أحوالٌ يُنتظر عندها الصبر، ويُجدي فيها الصبر من حيث الأجر أكثر من غيرها، بل وفي غيرها قد لا يجدي تلك الجدوى من حيث الأجر.

يعني: يتفاوت ثواب الصبر بقدر المصيبة، وبقدر ما يقع في القلب من تسليم واستسلام، وفي نفس الوقت إذا بردت المصيبة وزالت شدتها وحرارتها وعاد عقل الإنسان واستيعابه؛ فإن الصبر يكون أسهل، لكن المعيار والمحك الذي جاء فيه ما جاء من الفضل إنما هو قبل ذلك: عند الصدمة الأولى.

الجسم والنفس يعطيان استجابةً تلقائيةً للصدمة الأولى، لذلك تعرف كثيرًا من الناس أحيانًا لا يشعر بنفسه أصلًا لما يتلقَّى المصيبة! سواءٌ من ناحية شق الجيوب والثياب، أو اللطم، أو الصراخ العالي، أو الاعتراض... إلى آخره.

أحيانًا الإنسان لا يُدرك نفسه ولا ينتبه لنفسه، فهنا تأتي ميزة التكليف الشرعي وأن من أهم ما فيه: أن يُخرج الإنسان من استجاباته التلقائية واستجابته لحركاتِ نفسه العادية إلى أن يهيمن عليها بقرارات عقلهِ الناتجة عن امتثالهِ لأمر الله سبحانه وتعالى؛ فيمنع نفسه أن تُقدم على ما لا يُحب الله، ويؤخر نفسهُ عما لا يريد الله سبحانه وتعالى مما هو متعلق بمخالفة الأهواء.

فالآن عند الصدمة، المصيبة، المشكلة... النفس لها حركةٌ والشرع له أمرٌ فإذا غلَب الأمر على الحركة التلقائية، وسيطر عليها، وهيمن عليها؛ وقع الأجر، وهنا يكون الابتلاء والامتحان. أما إذا مشت النفس مع حركتها الطبيعية، دون أن يهيمن عليها الشرع؛ فهنا تحصل المخالفة. وقِس على ذلك أمور التكليف مثل: الجهاد في سبيل الله، النفس تريد القعود، والسلامة، والأهل، والأولاد... الشرع يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] فهي تزَاحُم محبوبات. ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] تَزاحُم طبع، وهوى، وإرادة نفسية، مع الأمر الشرعي.

نفس الشيء بالنسبة للنظر إلى الحرام، والرسول ﷺ وضح ذلك لما قال: "فَزِنا العَيْنِ النَّظَرُ، وزِنا اللِّسانِ المَنْطِقُ، والنَّفسُ تَمَنَّى وتشتهي، والفَرجُ يُصَدِّقُ ذلك أوْ يكَذِّبُه" [صحيح البخاري/ ٦٢٤٣] فهي النفس تمنى وتشتهي، وهنا يدخل التكليف والامتثال والاستجابة؛ ليسيطر الإنسان من خلاله على نفسه، وهنا تأتي حقيقة النجاح في العبودية لله سبحانه وتعالى.

هذه هي المعادلة: هناك غرائز وأهواء واسعة بقدر المساحة البشرية، ومساحة اشتهائها، أو شهواتها، أو حركتها. مثلًا: الهوى الأساسي الذي واجه الأنبياء والرسل في أقوامهم هو: الافتخار بالآباء والانتساب إليهم، وعدم الرغبة في مخالفتهم، والفخر بالحسب... وما إلى ذلك.

هذه هي القضية الكبرى بالنسبة إليهم، وأن هذا الدين يخالف ما كانوا عليه، فالذي حصل هو أن الله سبحانه وتعالى قال بعد ذلك كله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] فهي إما الاستجابة، وإما اتباع الأهواء. الاستجابة تلك كانت تقتضي أن يخرج الإنسان من كل دواعي ذلك الهوى وأحيانًا يكون هذا الخروج بقرار يقرره الإنسان مثل: قرار التوبة النصوح، إنسانٌ واقعٌ في ذنوب، واقعٌ في إشكالات، واقعٌ فيما لا يحب الله، واقعٌ في اتباع هواه...

أحيانًا يُطلَب من الإنسان أن يقرر أن يكسر كل تلك القيود التي تحيط به، ويخرج إلى مقتضى الأمر الشرعي؛ هذا الخروج هو الذي ورد فيه: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن أَحَدِكُمْ إِذَا اسْتَيْقَظَ علَى بَعِيرِهِ، قدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضِ فلاةٍ..." إلى آخره. [صحيح مسلم/ ٢٧٤٧]

هذه التوبة هي التي وردت فيها النصوص الكثيرة الواسعة، فأعني أهمية فهم هذا المعنى.

الفوائد:

الصبر عند الصدمة الأولى:

هنا نأتي لهذا الحديث، تلك امرأة في أول صدمة لم تصبر، ولما جاءها الرسول ﷺ ولم تعرفه وذكرها بالله "فَقالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ خِلْوٌ مِن مُصِيبَتِي" [صحيح البخاري/ ٧١٥٤]

فانصرف النبي ﷺ عنها، ثم هي عرفته فرجعت كلمته، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى". [صحيح البخاري/ ١٢٨٣]

إنما الصبر عند الصدمة الأولى، لماذا؟ **لأنها التي يظهر فيها معنى سيطرة الإنسان على دواعي أهوائه، وهذه خلاصة مهمة جدًا في الصبر، تظهر للمؤمن عند الصدمة الأولى.**

مَن الذي يمكن أن يصبر عند الصدمة الأولى، أو يمكن أن يتغلب على هواه عندما يهجم عليه؟

هو الذي لديه استجابةٌ سابقةٌ، لديه علمٌ سابقٌ، لديه إيمانٌ سابقٌ، لديه تجربةٌ سابقةٌ في مجاهدة النفس، الذي كانت له قدم تسير به في طريق الإيمان، وفي طريق العلم بالله، وفي طريق مخالفة الهوى، وفي طريق

المجاهدة، الذي اعتادت قدمه على هذا الطريق؛ هو الذي يَسهُل عليه أن يسيطر على ما يعترض سيره في هذا الطريق من أهواءٍ عارضة. بل تصبح مثل هذه الأهواء عبارة عن أشياء طارئة على الطريق.

بخلاف الآخر الذي هو أصلًا قدمهُ لم تعتد على طريق العبودية الحقة لله سبحانه وتعالى، فإذا جاءته أهواء عارضة فمن السهل عليه السقوط؛ لأنها تتفق مع طريقهِ الذي يسير فيه أصلًا وهو طريق الهوى. هذه خلاصةٌ مهمةٌ أرجو أن يكون فيها نفعٌ إن شاء الله.

سهولة الوصول للنبي ﷺ:

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ لم يكن على باب بيته بوابين، وبالمناسبة البخاري أخرج الحديث في موضع آخر بهذا المعنى: "باب من لم يتخذ على بيته بوابًا" يعني لأجل هذه الجملة بوَّب البخاري في واحد من المواضع، فهذه كذلك من الأمور المتعلقة بهدْي النبي ﷺ فقد كان **سهل الوصول**، وصلت إليهِ -المرأة- سريعًا؛ لأنها لم تجد عنده بوابين.

هذه الفكرة ليست هي مجرد الزهد أو شيء، وإنما حتى فيها معنى سرعة الوصول، وأنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]

كان الناس يَصِلون إلى النبي ﷺ بطرق مختلفة، فالذي يصل إليه عن طريق المسجد، والذي يصل إليه عن طريق البيت، والذي بطبعه الجِلف يصل إليه عن طريق رفع الصوت والمناداة، بل ووصل الحال إلى أن رجلًا جاء فاطَّلع من فتحةٍ في الباب داخل بيت النبي ﷺ وجاء فيه ما جاء من الأحاديث التي فيها اعتبار عين المتجسس هدَر لو رماه الإنسان بشيء ففقع عينه، وجاء فيه حديث: "إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ" [صحيح البخاري/ ٦٢٤١] أو من أجل النظر.

النصيحة:

الأمر الثالث: من الفوائد: **النصيحة الفردية المتعلقة بالأخطاء التي تحصل أثناء الطريق**، وكذلك النصيحة المباشرة؛ بعض الأمور تحتاج إلى نصيحةٍ مباشرةٍ "اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي" [صحيح البخاري/ ١٢٥٢] وتذكيرٍ مباشرٍ بالحقيقة التي يجب على الإنسان أن يستحضرها، هذا من هدْي النبي ﷺ.

أحيانًا تحتاج "ما بال أقوام"، وأحيانًا تحتاج مباشرةً، ليس أن النبي ﷺ مشى من أمامها، ثم ذهب إلى المنبر وقال ما بال أقوام؟ مثلًا، لا بل نبهها مباشرةً لاحتياجها لذلك "اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي" فالتمييز بين مقامات الإنكار ما الذي يحتاج منها إلى شيء مباشر؟ وما الذي يحتاج غير مباشر؟

كلَّما وسَّعت في قاعدة الحوادث النبوية في إنكار المنكر... وقد وقفت على كتاب جميل في تتبع الأحاديث التي فيها إنكار النبي ﷺ للمُنكر أظن بمئات الأحاديث؛ فتوسيع القاعدة المعرفية المرتبطة بهذا تُسهِّل عليك القياس، متى تشدد ومتى ترخي بحسب الأحوال، بحسب الشخص، بحسب المنكر، بحسب المصيبة، بحسب المخطئ، بحسب السياق، هذه كلها لها تأثير في طبيعة الإنكار، وهنا كان الإنكار إذا تأخر فان وقته؛ فالآن لازمٌ الصبر "اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي".

الحديث الثامن: "ما لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ..."

ثم قال: عن هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: "يقول الله تعالى: ما لِعَبْدِي المؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلَّا الجَنَّةُ" [صحيح البخاري/ ٦٤٢٤].

هذا الحديث لا شك أنه من آنس الأحاديث للإنسان المؤمن الذي يفقد صفيًا له من أهل الدنيا. وفي ذلك أن الأجر كذلك يتفاوت بتفاوت شدة المصيبة؛ لأنه قال: إذا قبضت صفيَّه وهذا واضحٌ فيه أثر المصيبة، بينما الإنسان قد يفقد شخصًا من عامة الأصدقاء مثلًا أو من عامة الأقرباء فيحزن لكن لا يتأثر تأثرًا كبيرًا. لكن كلما ازدادت القضية شدةً؛ ازداد الأجر.

وكذلك الأسلوب الذي في هذا الحديث أسلوبٌ يؤكد هذه الحقيقة؛ لأنه لم يقل فقط "من قبضت صفيه فجزاؤه الجنة" وإنما "ما لِعَبْدِي المؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ" وهذا أسلوب آكد بكثير، وأوضح في توثيق وتأكيد هذا المعنى "ما لِعَبْدِي المؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلَّا الجَنَّةُ".

والدائرة هنا على كلمة "ثُمَّ احْتَسَبَهُ" بقول: اللهم إنا نحتَسِب هذا عندك، والاحتساب ليس بالضروري أن يكون بلفظ الاحتساب؛ الاحتساب هو معنىً قلبي ويُعبَّر عنه بِ "إنا لله وإنا إليه راجعون" ونحو ذلك من الأحاديث والآثار، لكن الاحتساب في الأساس هو معنى قلبي في مثل: "مَن صامَ رَمَضانَ إيمانًا

واحْتِسابًا" [صحيح البخاري/ ٢٠١٤] ،"مَن قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إيمَانًا واحْتِسَابًا" [صحيح البخاري/ ١٩٠١] ونحو ذلك.

طبعًا هذا حديثٌ قدسيٌ ومن المعلوم: أن الأحاديث القدسية من جملة الأحاديث التي تُثبت أن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ فيما هو أوسع من القرآن الكريم، ففي هذا نسبةٌ إلى الله سبحانه وتعالى واضحة.

الحديث التاسع: "...فليسَ مِن عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا، ..."

عن عائشة رضي الله تعالى عنها: "أنَّهَا سَأَلَتْ رَسولَ اللَّهِ ﷺ وسلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فأخْبَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وسلَّمَ: أنَّه كانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ علَى مَن يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فليسَ مِن عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أنَّه لَنْ يُصِيبَهُ إلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ له، إلَّا كانَ له مِثْلُ أجْرِ الشَّهِيدِ" [صحيح البخاري/ ٥٧٣٤].

إعادة تصحيح المعايير:

هذا الحديث أولًا: فيه إعادة موضعة بعض الأمور إلى غير مواضعها المعتادة عند كثير من الناس، يعني مرض وطاعون ووباء، فأنت ماذا يمكن أن تُعرِّفه بمعاييرك العادية؟ يأتي هنا النبي ﷺ ليعيد موضعة هذا الأمر إلى موضع غير معهود عند أكثر الناس، تخيلوا وباء وطاعون ويموت الناس، والنبي ﷺ يصفه بِ(رحمة)!

ويقول قبل ذلك: "أنَّه كان عذابًا يبعثُهُ اللهُ عَلىٰ مَن يَشَاء"، هو نفسه الطاعون لكنه كان يأتي عذابًا، ثم صار يأتي رحمة، وهذا يفيد الإنسان المؤمن عندما تأتي مثلًا سيول هادمة، عندما تأتي صواعق، عندما تأتي فيضانات، عندما تأتي مثل هذه الأمور حتى أوبئة وهكذا...

أحيانًا نفس هذا الحدث الذي يحدث بعينه يقع في بلدٍ ما فيكون عذابًا، ويقع في بلدٍ آخر فيكون رحمةً. أحيانًا تثار شبهاتٌ: "أن الأمر على مزاجكم؛ إذا جاء هذا مرةً تقولون رحمة ومرةً تقولون عذاب وابتلاء!" لا، الأمر ليس هوى؛ وإنما من هذا الحديث يُفهَم أنه ممكن نفس الفعل يحدث كما هو فيكون

في ميزان الله سبحانه وتعالى وفي إرادة الله أنه عقوبة لأقوام، وفي ميزان الله سبحانه وتعالى أنه لأناس رحمة وزيادة في الأجور.

كيف يُعرف الفرق؟ الذين يعرفون الفرق هم الذين لديهم علم بالله وبسنَنه وبأقداره. أما الجُهال، والطاعنون في الدين، وأصحاب الأهواء، وأصحاب الدنيا؛ فلا سبيل لهم للتفريق بين هذه الأمور. أما من كان له علم بالله سبحانه وتعالى، وكذلك له علم بأحوال الناس؛ فهو يعلم أنه في هذه السَّنة هناك من أفعال الناس ما قد يوجب أن يكون هذا الذي حدث بلاء أو عقوبة، وهناك العكس: ما قد يُفهَم منه أنه رحمة من الله سبحانه وتعالى.

لذلك لما جاء الطاعون في زمن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- وهذا مر معنا في سلسلة "خير القرون" ربما بشكل مفصل وهو طاعون عمواس. لما جاء الطاعون كان الصحابة قد استفادوا من هذا الحديث وأمثاله وتعاملوا مع الطاعون بشكلٍ غريب جدًا جدًا جدًا، استفادوا من هذا التغيير في المقاييس والموازين، وساروا على هذه المقاييس الجديدة.

فكان أبو عبيدة ومعاذ بن جبل يسألان الله أن يجعل لهما ولآلِهما من هذا الطاعون نصيبًا! وكان لما نظر أبو عبيدة -وأظن هناك رواية أنه معاذ- إلى يده قال: "ما أحب أن لي بما فيك شيئًا من الدنيا" بهذا الذي ظهر في يده من آثار الوباء، وماتوا رحمهم الله ورضي الله عنهم في ذلك الطاعون، ومات كثير من الصحابة. وقد ذكر النبي ﷺ: "اعْدُدْ سِتًّا بيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ "[صحيح البخاري/ ٣١٧٦] هذا حمَلَه العلماء على الطاعون الذي حصل.

فالشاهد: أن النبي ﷺ بيّن أن هذا الطاعون رحمةٌ، ومن هنا أيضًا يُعلم أن الله سبحانه وتعالى أراد بهذه الأمة خيرًا، وأن من جملة الخير الذي أراده بها: هو ما يقع عليها من ابتلاءات، وهذا عكس الموازين المعتبرة عند كثير من الناس أنه إذا أراد الله بأمةٍ خيرًا؛ لا تكون هناك ابتلاءات أو غيرها، ويكون الرخاء -على مستوى الأمة وليس على مستوى الأفراد-، والقرآن يبين عكس هذه القضية، قال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَٰهُم

بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥] وفي سورة الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: ٤٤] لكن الفكرة في الآيات عكس المتوقع! يعني أنت تقول ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ماذا تنتظر؟ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ لا، بل ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وبالتالي لما يأتي بعض أهل الدنيا وبعض أهل الفسق والفجور يقولون: الحمد لله عندنا في بلدنا كل شيء مفتوح، وكل شيء رخاء، وكل شيء تطور، وكل شيء عمران، وهذا دليل على رحمة الله بنا وأن الله راضٍ عنا.

نحن نقول: مشكلةٌ أنك قليل الفقه بكتاب الله، فالقرآن يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ كل شيء من ماذا؟ من الرزق، والسعة في الحياة، والعيش، والتمكن من الأرض، كل ما يؤدي إلى الرخاء الاقتصادي والقوة والعمران... إلى آخره.

هذا كله يحتاج منك إلى فقه، فليس معنى ذلك أن كل ما يكون في الدنيا فهو معناه أنه سبيل للعذاب. لكننا نقول: لا يوجد تلازم بين وجود الرخاء، والاستقرار، والانفتاح الاقتصادي، وكون الأموال دارة؛ أن هذا معناه أننا في خير وطريق صحيح من الله سبحانه وتعالى، وأن البلدان التي أصيبت بالحروب فهذا دليل على أنهم ضيعوا أمر الله سبحانه وتعالى فأصابهم بهذا الأمر. هذا المعيار بهذا المنطق ليس صحيحًا، لماذا؟

لأن عندنا مثلًا هذا الحديث في البخاري، الطاعون وباءٌ والناس تموت فيه ثم يقول الرسول ﷺ: "فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالى رَحْمَةً" فهناك مقاييس يجب للإنسان ألا يأخذها بسطحية، وهذه القضية تحتاج إلى توضيحٍ.

على أننا في زماننا هناك أمور كان يظن الظان أنها لا تحتاج إلى توضيحٍ أبدًا، حتى في منطق المسلمين من أهل الدنيا ممن يتساهلون في الفسق والفجور، ولكن عندهم أساس الإسلام، فبسبب استثنائية ما نعيش فيه من اختلاط الأفكار والمفاهيم في هذه المرحلة الزمنية وعمومًا في العصر الحديث؛ وصلت

بعض المفاهيم الخاطئة، وصارت أشياء لا تتوقع أنها تحتاج إلى تنبيه في قضية أن هذا ليس رضًا من الله عليك، وإنما قد يكون استدراجًا أو إمهالًا.

أنا أقول هذا لأني وقفت قريبًا على مقطع لأحد المغنيين المطربين التائبين، فهو كان يتكلم عن نفسه، فيقول: أنا أول ما نزَّلت المقطع في اليوتيوب لقيتُ عددًا من المشاهدات المليونية، فلمست من هذا رضا الله سبحانه وتعالى أن فتح علي! فلو أن الله ليس راضٍ عني كيف وصلت هذه المشاهدات؟ وكيف صار هذا القبول؟. ثم بعد ذلك لم يكن يشعر بالراحة، فقرر التوبة، بعد ذلك أقام حفلة مرة ثانية وصار فيها انتشارًا، فعادت له الشبهة مرة ثانية: الله فتح عليك، الله ساق لك الناس، المشاهدات المليونية...

فيبدو أن هذه المفاهيم موجودة عند بعض الناس، مثل القصة التي رُويت عن المرأة التي ترقص وبعدها تسجد شكرًا لله أنها وُفقت! لست متأكدًا من صحة هذه القصة. لكنني شاهدتُ هذا المقطع له بنفسه التائب وهو يتكلم. فأقول: فكرة أن الرخاء الاقتصادي دائمًا نعمة وبركة، هذه شبهةٌ تحتاج علاجًا، – مع أنها قد تكون فعلًا كذلك– لأنها قد تكون استدراجًا وإمهالًا.

فلو قال قائل: هل يمكن أن تكون نفس صورة القدر مرةً نعمة ومرةً استدراجًا؟ نعم يمكن أن تكون، كما في الحديث: "أنَّه كانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ علَى مَن يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ" وهو نفسه الطاعون.

وهذه الخيرات التي في السنة النبوية، ننبه مرةً ثانيةً أنها واحدةٌ من العناوين الأساسية. نحن ذكرنا عندنا في "خير القرون" عشرةَ أُطرٍ للنظر إلى مرحلة خير القرون، كذلك في السنة النبوية عندنا أُطرٌ متعددةٌ ننظر من خلالها للسنة النبوية، واحد من هذه الأطر: تصحيح المعايير وهو باب في (المنهاج): "بابٌ في ضبط الأفهام على معيار الوحي وتصحيح النبي ﷺ لمقاييس النظر وأن من أسباب الضلال رد الحق بمعايير نظر باطلة".

فواحدٌ من الأدوات المراعاة أثناء النظر إلى السنة النبوية وأحاديث النبي ﷺ هو: إطار تصحيح المعايير. وهذا مقصودٌ دائمًا، بالنسبة لي لما أتناول أحاديث النبي ﷺ أحاول أن أنتبه لهذه القضية؛ لأننا في زمن صُنعت فيه معايير باطلة وزائفة كثيرة، نظرًا لحالة الهيمنة الثقافية والفكرية التي حصلت على العالم

الإسلامي من خلال السيطرة الغربية سواء بالاستعمار المباشر أو ما بعد ذلك وما رافقه من استشراقٍ وتأثيرٍ، حتى مع العولمة بعد ذلك، وتأثير الإعلام والمسلسلات... إلى ما لا ينتهي من الأدوات التي حصلت في العصر الحديث، بحيث أنه صار هناك طوائفٌ من الناس داخل البلدان العربية والإسلامية تأسست أفكارها -أو بعضها- وبعض ثقافتها من خلال تلك الصور الإعلامية، والسينما، والمسلسلات، والأفلام... وهذه لم تكن تتكلم عن الفضاء بطبيعة الحال، وإنما تتكلم عن الزواج، والطلاق، والتعدد، الأمور الاجتماعية، والعمل، والوظيفة، والحارة، والطبقات الاجتماعية... فهي كلها في صميم البناء الثقافي للمجتمعات، فأثرت وصارت هناك قواعدٌ من الفكر والثقافة مؤثرةٌ كثيرًا جدًا في واقع المسلمين اليوم.

ولذلك عندما نريد الحديث عن أنوار السنة المحمدية فنحن نتكلم عن واحد من الكشافات أو الأطر التي ننظر من خلالها إلى السنة النبوية، وما جاء فيها من تصحيح للمعايير والأفهام، فنستفيد من مجموع ذلك كله:

أن النبي ﷺ كان حريصًا على تصحيح المعايير الأولى "ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ" [صحيح البخاري/ ٦١١٤] "ما تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟ قالَ: قُلْنا: الَّذي لا يُولَدُ له، قالَ: ليسَ ذاكَ بالرَّقُوبِ، ولَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذي لَمْ يُقَدِّمْ مِن ولَدِهِ شيئًا" [صحيح مسلم/ ٢٦٠٨]

وأحاديث أخرى أيضًا في باب تصحيح المعايير في المنهاج مثل "الدُّنْيا سِجْنُ المؤْمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ" [صحيح مسلم/ ٢٩٥٦] قلبٌ للمفهوم وللمعيار!، "هذا خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأرْضِ مِثْلَ هذا" بعد ما قالوا فيه ما قالوا [صحيح البخاري/ ٥٠٩١]، "رُبَّ أشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بالأبْوابِ" [صحيح مسلم/ ٢٦٢٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠] لأنهم قالوا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩] المعيار

فعليًا في طبيعة النظر إلى ما أوتي قارون، أن أولئك قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ والآخرون قالوا: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾.

الحديث العاشر: " ...إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ،... "

ثم قال النووي –رحمه الله تعالى وأعلى منزلته ودرجته–: عن أنس –رضي الله تعالى عنه– قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ، يُرِيدُ عَيْنَيْهِ" [صحيح البخاري/٥٦٥٣].

هذا الحديث أيضًا فيه جانبٌ من جوانب ما يُصبَر عليه ويكون فيه ثوابٌ خاصٌ. ومن الفقه: النظر إلى الأمور التعبدية التي ورد فيها الثواب من جانبين:

١) **الجانب العام الذي ورد في أصل العمل.**

٢) **الجانب الخاص بالثواب المتعلق بفروع من هذا العمل.**

فالذي ينظر بعينين إلى ثواب الأصل، وإلى ثواب الفروع؛ يُوفَّق إلى مزيد من العمل وإلى مزيد من الاحتساب.

الجانب العام الذي ورد في أصل العمل:

الباب الأول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] الثواب على أصل العمل، وغير ذلك من النصوص الكثيرة في ثواب الصبر بدون تحديد الصبر على ماذا.

الجانب الخاص بالثواب المتعلق بفروع من هذا العمل.

الباب الثاني: الثواب الخاص الذي ورد في الصبر على أشياء معينة، منه هذا الحديث: "إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ" ومثل الحديث الذي مر معنا سابقًا: "ما لِعَبْدِي المؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِن أهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إلَّا الجَنَّةُ" هذا الآن ثواب خاص على صبر خاص.

هل يدخل ثواب الصبر على مَن فقد "بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ" في ثواب الصبر العام ﴿اللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين﴾ [آل عمران: ١٤٦]؟ نعم. ما الفائدة من هذا؟ إذا طبقتهُ في أبواب ستزداد حرصًا على العمل، وستزداد احتسابًا.

مثلًا: الذكر، ماذا يوجد في الباب الأول للذكر؟

الباب الأول: قوله تعالىٰ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: "وأنا مَعَه إذا ذَكَرَني" [صحيح البخاري/ ٧٤٠٥]، قوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] هذا الآن كله في العام.

الباب الثاني: قوله ﷺ: "مَن قال: سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ" [صحيح البخاري/ ٦٤٠٥]، وقوله ﷺ: "مَن قالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، له المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهو علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ في يَومٍ مِئَةَ مَرَّةٍ" [صحيح البخاري/ ٦٤٠٣] الآن الذي يقولها مئة مرة له الفضل الخاص الوارد، وله الفضل العام الوارد في الذكر.

مَن قال: "لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللَّهِ" يكون له الفضل الخاص: "كَنْزٍ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ" [صحيح مسلم/ ٢٧٠٤] وفي نفس الوقت هو ينال أجر الذاكرين، وثواب الذاكرين، وثمرات الذكر العامة، التي من جملتها: طرد الغفلة، ومعية الله سبحانه وتعالى، والانتصار على الشيطان... إلى آخره.

والعام والخاص في كل الأعمال هو منتظم تحت عنوان أكبر منه، هو: العمل الصالح ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] ماذا يدخل تحت ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟ الصبر ببابيهِ -وكل واحد منهما تحته تفاصيله-، الذكر ببابيْه، الصلاة بأبوابها... إلى آخره. الذي ينظر بهذه الطريقة؛ يزداد -كما قلت- احتسابًا، واستحضارًا، وتلذذًا بالعبادات.

الحديث الحادي عشر: "...أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجَنَّةِ؟..."

وعن عطاء ابن أبي رباح، قال: "قالَ لي ابنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلَى، قالَ: هذِه المرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتِ النبيَّ ﷺ قالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ وإنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ تعالى لِي، قالَ: إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ تعالى أَنْ يُعَافِيَكِ قالَتْ: أَصْبِرُ، قالَتْ: فإنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لا أَتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا" [صحيح البخاري/ ٥٦٥٢].

أولًا: هذا الحديث يتبع الباب الثاني، وهو حديث ذُكر فيه مرض الصرع وهذا المرض شديد، ويؤثر على طبيعة حياة الإنسان اجتماعيًا ونفسيًا، فهو في لحظة قد يفقد التوازن والشعور ويسقط ويكون أمام الناس... فيُسبب له مشكلة، وقد يؤدي إلى حالة من القلق الدائم، فالأمر ليس سهلًا أبدًا.

النبي ﷺ لما جاءته هذه المرأة، هذه المرأة عندها أعمال صالحة أخرى بالتأكيد، وهنا لما اشتكت إلى النبي ﷺ، وطلبت منه أن يدعو لها أن يعافيها الله من هذا المرض. لنفهم ما قيمة الصبر على المرض: الآن ما المشكلة لو أن هذه المرأة قالت للنبي ﷺ: بل ادعُ الله لي. وتستمر على بقية الأعمال الصالحة؟ فلما تقول: "فَادْعُ اللَّهَ تعالى لِي" النبي ﷺ يعرضها خيارين: إما أن تصبر على هذا المرض، فيستمر معها ولها الجنة. وإما أن يدعو الله أن يعافيها.

واضحٌ أن المرأة لديها رصيدٌ ماضٍ من الصبر على هذا المرض، وهي تعاني منه، ولديها رصيدٌ -أكيد- من العبادات باعتبارها مسلمةً وصحابيةً، ولكن يُخيِّرها النبي ﷺ بين أن تَصبر على هذا المرض ولها الجنة، وبين أن يُكشف عنها هذا المرض.

إذا كُشف عنها هذا المرض؛ هل ستكون من أهل النار؟ ليس بالضرورة طبعًا، بل الأصل باعتبارها مؤمنة؛ أنها إن شاء الله من أهل الجنة، هذا الأصل ما لم تغلب أمور أخرى.

لكن ما المقصود من: "إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ"؟ المقصود أنها إذا أتت يوم القيامة **فأرجى الأعمال، وأولى ما قدمته في حياتها، أن يكون سببًا ليدخلها الجنة من بين سائر أعمالها، هو: صبرها على هذا المرض**. هذا مثل الذي يدخل الجنة من باب الريان؛ لأنه كان يصوم كثيرًا، وفي نفس الوقت

هو مصلٍ، وهو صابرٌ على الأمراض التي أتته، لكن أكثر ما أدخله الجنة هو الصيام، ولذلك أدخله الله من باب الصيام. وكلما كثُر عمل الإنسان، وحسُن في باب معين حتى صار أصلًا كبيرًا في حياته؛ يأتي يوم القيامةِ كل واحدٍ من هذا يكون قائمًا بذاته ليدخل الله به الإنسانَ الجنة.

لما قال النبي ﷺ ذلك، قال أبو بكر: "يا رَسولَ اللَّهِ ما علَى مَن دُعِيَ مِن تِلكَ الأبْوَابِ مِن ضَرُورَةٍ، فَهلْ يُدْعَى أحَدٌ مِن تِلكَ الأبْوَابِ كُلِّهَا، قالَ: نَعَمْ" [صحيح البخاري/ ١٨٩٧]. فهناك مَن يأتي يوم القيامة فيُدعى من باب الريان؛ لأنه من أهل الصيام الكثير، ومن باب الصدقة؛ لأنه من أهل الصدقة الكثيرة، ومن باب الجهاد؛ لأنه يجاهد في سبيل الله، ومن باب الصلاة؛ لأنه كثير الصلاة، وهكذا. هذا نفسه هو باب الصبر على المرض، ومرض هذه المرأة تحديدًا.

الآن لما قَالَ ابْنُ عَبَّاس لِعَطَاء: "تَعَال أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" لماذا؟ لأنه لم يُفهم من كلام النبي ﷺ أنه كلام عام فقط؛ وإنما فُهم منه أنه كلامٌ خاصٌ كالشيء الحتمي، كأن النبي ﷺ يقول لها: أنا لا أضمن لك إلا ما أضمنه لعامة المؤمنين، لكن هذه أضمنها لك: من هنا إلى أن تموتي، الطريق الذي تدخلين به الجنة حتمًا –من حيث الأسباب التي يقدمها الإنسان المؤمن فيكون قد أدَّى ما عليه أداءً يرجو به رحمة الله فيدخل به الجنة– هو هذا العمل الذي تعملينه، مع المحافظة على بقية الفرائض.

سؤال: هل هذا خاصٌ بالمرأة من حيث أصل الرجاء لدخول الجنة بسبب الصبر على مرض معين؟ لا، ليس خاصًا بها، وإن كنا لا نستطيع أن نقول: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة" أو "ألا أريك رجل من أهل الجنة" لكن يمكن من باب الرجاء، وليس الرجاء العادي وإنما من باب الرجاء الحقيقي.

وبالتالي إذا رأيت إنسانًا مؤمنًا مُصابًا بمرضٍ من الأمراض، وصابرًا عليه؛ فلكَ أن تُذكره بهذا الحديث، وأن تقول له: "أولى الناس أن يرجوا رحمة الله وجنته أنتَ بصبرك هذا". فهذه قضيةٌ في غاية الأهمية، وفي غاية ما ينبغي أن يُتنبه إليه.

لكنها قالت آخر شيءٍ: "فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لا أَتَكَشَّفَ" فدعا لها، وهذا لم يكن يعارض قضية الصبر. والحديث حقيقةً عجيبٌ وعظيمٌ، وفيه خيرٌ كبيرٌ.

الحديث الثاني عشر: "... رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ..."

نختم بحديثين، الحديث التالي: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: "كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ ويقولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ". متفقٌ عليه.

هل هناك استيعاب مَن الذي ضُرب؟ ومن الذي أُدمي؟ أنت الآن قَلِّب في مَن تعلم في حياتك، من أهل العلم، أو أهل الفضل، أو أهل الصلاح، وممَّن لهم مكانة عند الناس واحترام وتقدير، ثم انظر إلى حال الأنبياء.

هنا يحكي النبي ﷺ نبيًا من الأنبياء ضربهُ قومهُ فأدموهُ، ويظهر فيها حالة هوانه على الناس، كأنهم اجتمعوا عليه اجتماعًا وضربوهُ حتى سال منه الدم، هذا ليس في قضية قتال أو جهاد؛ بل كأنهم تسلطوا عليه فضربوهُ حتى أدموهُ! وهذا معناه أنهم كانوا في غاية الفسق، والفجور، والانحراف، وأنه هان عليهم.

سؤال: لماذا لم يمنعه الله سبحانه وتعالى منهم؟ **جاءت هذه الأحاديث لتؤسس معنى الابتلاء، تؤسس معنى أنك إن كنت كريمًا على الله؛ فلا يعني ذلك أنك لن تُبتلى بمثل هذه الابتلاءات**. ومثلها أن يُباع نبي الله يوسف، وبثمنٍ بخسٍ، وأن يُمنع محمد ﷺ عن أن يسجد لله عند البيت، وأن يُوضع عليه سلا الجزور، وأن يُقتل من قُتل من الأنبياء.

هذه الآن أبوابٌ من أبواب العلم بالله، الذي يكون عبر العلم بأسمائه وصفاته من جهة، ويكون عبر العلم بآياته الشرعية من جهة، ويكون عبر التفكر في آياته الكونية من جهة، وأيضًا العلم بأقداره وسننه . الآن من أقداره وسننه سبحانه أن يُبتلى أنبياؤه، فهذا من جهة تأخذ منه معنى الابتلاء، ومن جهة تأخذ منه معنى العلم بالله.

هذا باب كبير وشريف من أبواب العلم بالله سبحانه وتعالى، فيزداد علمك بالله؛ كلما ازددت علمًا بأقداره وسننه. وكأنك تقول: هل يمكن أن يقدِّر الله مثل ذلك؟ من العلم بالله لما تنظر إلى أقداره السابقة، وإلى ما أجراه على الأمم تقول: نعم، الله سبحانه وتعالى قدَّر كذا، وقدر كذا، وقدر كذا،

وقد تصل بهذه الأقدار -بعلمك الموافق للفقه في الدين- أن تعلم أنها سنة. وبالتالي؛ ليس فقط أنك تقول: نعم، يمكن أن يقدِّر الله كذا. بل ستقول: لن يحدث إلا كذا من جهة سنة الله. وإن كنت قد تخطئ أنت في الحدث المعين، لكن ليس من حيث المبدأ الكلي؛ فالله سبحانه وتعالى هذا فعله الدائم.

هذا من ناحية العلم بالله، تعلم أن الله سبحانه وتعالى يقدر مثل هذه الأقدار، فهذا باب شريف وعظيم جدًا، وهو باب العلم بالله من خلال العلم بأقداره وسننه.

ما هو القدَر الذي جرى هنا؟ هو ما أصاب هذا النبي. هل هذا أمرٌ فيه سنةٌ أو متكرر؟

الجواب: نعم، وذلك أنه قد ورد في بعض الروايات أو في ما ذكره بعض الشراح أن هذا أصلًا هو النبي ﷺ ويحكي. هو قال: "كأَنِّي أَنْظُرُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ" ما معنى يحكي؟ أي: بالمحاكاة، يفعل مثله، يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه؛ لذلك أظن في بعض الروايات أن هذا كان في أُحد، أن النبي ﷺ والدم على وجهه، كان يحكي نبيًا من الأنبياء يمسح الدم عن وجهه، إذ ضربهُ قومه فأدموه. هنا القضية تأخذ بُعدًا أكثر عمقًا.

الشاهد: أن هذا من جملة ما يزيد الإنسان علمًا بالله من جهة، ومن جهة أخرى: يرسّخ قضية الابتلاء عند الإنسان، وأنه مرتبط بقضية الصلاح، والنصرة لدين الله، والعمل لهذا الدين، وأن أشد الناس بلاءً هم الأنبياء، وهذه صورةٌ من صور شدة الابتلاء على الأنبياء.

الحديث الثالث عشر: " ... "ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ،..."

عن أبي سعيد وأبي هريرة -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: "ما يُصِيبُ المسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ" [صحيح البخاري/ ٥٦٤١].

هذا الحديث من الأحاديث التي تعد من الفضل الخاص للابتلاء، الآن نحن أصبحنا ننظر للأبواب المختلفة للدين بزاويتين: زاوية الفضل العام، وزاوية الفضل الخاص.

من زوايا الفضل الخاص للابتلاءات: أنه سببٌ لتكفير الذنوب والخطايا، وهذا السبب قد يرتفع إلى أن يكون من أهم أسباب دخول الجنة بالنسبة للإنسان من جهة كونها مُطهِّرة للإنسان من ذنوبه وخطاياه، ثم في الأخير إذا وافى الإنسان يوم القيامة توزن حسناته وسيئاته، فإذا كان للإنسان سيئات ولم تكن له حسنات ماحية، فهنا تأتي المصيبة والكارثة يوم القيامة، المصيبة أن يوافي الإنسان ربه بذنوب وبسيئات، وليس عنده من الأشياء التي تمحو أو تخفف هذه الذنوب.

فمن جملة ما تُخَفف به الذنوب وآثارها عن الإنسان أن يُصاب بالابتلاءات. ولذلك ذكر ابن تيمية –رحمه الله تعالى– مسألةً مهمةً في قضية أن الإنسان متى يُعاقب بذنبه؟ أو متى يمكن أن تسقط عنه ذنوبه؟ فذكر عشرةً من الأسباب التي تُسقط الذنوب، واحدةٌ منها الابتلاءات، الابتلاءات بالأمراض، والأسقام، والهموم، والأحزان... وما إلى ذلك.

سبحان الله، الذي يتأمل في مجموع النصوص الواردة في الشريعة لا أقول أنه يتمنى البلاء، ولكن ليس فقط أنه يصطلح مع الابتلاء، وإنما يحبه؛ لا يحب أن يُصاب به، ولكن يحب معنى أن يكون له سبب يحبه الله بسببه، ويرضى عنه بسببه، ويكفر عنه سيئاته بسببه!

وهذا أيضًا من تصحيح المعايير خِلاف طبيعة ما يهواه الإنسان، وخِلاف ما يسعى إليه الإنسان، وخِلاف بعض الثقافات المعاصرة التي تسعى في تعزيز السعادة الدنيوية المحضة من كل الجهات، والابتعاد عن أي ما يكدر الإنسان ولو كان فيه فرارٌ عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

الشاهد: أن هذا الحديث يبين لنا زاوية من زوايا الفضل المتعلق بالابتلاء، وهي زاوية تكفير الذنوب والخطايا والسيئات. فقال فيه النبي ﷺ :"مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حَزَنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُها إلاَّ كفَّر اللَّه بهَا مِنْ خطَايَاه".

لو قيل: "ما يصيب المسلم من بلاء إلا كفر الله به من خطاياه" هل كلمة البلاء تنتظم هذه التفاصيل؟ نعم تنتظمها؛ لأن الهَم بلاء، والمرض بلاء، والغم بلاء... إلى آخره. لكن، أن يأتي النص مُفصلًا بأنواع الابتلاءات والأوجاع التي ترد على الإنسان، كأن النبي ﷺ يريد أن يقول: أنت عندك هذا الابتلاء؟ أنت أيضًا داخل في هذا النص. بعضكم أصيب بالوصب –الذي هو المرض، وبعضهم قال: المرض

الدائم- أنت أيضًا داخلٌ في الحديث، أنت أُصبت بالهم؟ أيضًا داخلٌ. أنت أُصبت بالحزن؟ هذا داخلٌ. أنت أُصبت بالأذى؟ هذا داخلٌ. أُصبت بالغم؟ هذا داخلٌ. إلى النص على الشوكة! ماذا هناك أكبر من الشوكة؟ كله داخلٌ.

ما مقدار الوجع الذي يصل للإنسان من خلال الشوكة؟ هناك حديث للتقليل من وصف الألم: "ما يجدُ الشَّهيدُ من القَتلِ إلَّا كما يجدُ أحدُكم من القَرصةِ" [صحيح ابن ماجه/ ٢٢٧٨] ألم القرصة قريبٌ من الشوكة فهي أصلًا للتقليل. فإذا كان قد نُص على أن ألم الشوكة مما يُكفر به الخطايا؛ فمن باب أولى ما هو فوق الشوكة من الأوجاع. بل والنص هنا على هذه الأنواع من الابتلاءات.

وبالتالي مَن يُصاب بمجموع هذه الابتلاءات بالميزان الدنيوي نحزن عليه، لكن بميزان الأجور هنيئًا له، والإنسان لا يتطلب البلاء، فكما تعلمون: "لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ" [صحيح البخاري/ ٧٢٣٧] لكن إذا أُصيب الإنسان -ولا مناص للمؤمن إلا أن يصاب بمثل هذا- فليحتسب وليُبشر بالخير، فهي رحمةٌ من الله سبحانه وتعالى قد جعلها سببًا لتكفير سيئاته.

وبالمناسبة يمكن أن تقول: هذا باب أجور كبير، فإلى متى يُؤجَر الإنسان وتُكفَّر سيئاته؟ وعنده صلاةٌ فيها حسنات، وذكرٌ فيه حسنات... ما هي الحدود والدرجات؟ هل القضية فعلًا فارقة أم ليست فارقة؟ القضية فارقةٌ جدًا في الآخرة؛ فرقٌ بين من يكون عنده رصيدٌ كبيرٌ من الحسنات، وبين من يكون عنده رصيدٌ ضئيلٌ من الحسنات.

فالله سبحانه وتعالى واسعٌ عليمٌ، والإنسان لا يظن ولا يعرف مقدار ثواب الله في الآخرة؛ أنت تقول الجنة كاسم النعيم، لكن الجنة نفسها فيها من التفاوت ومن الدرجات الأمر العظيم جدًا بحيث أن الإنسان إذا دخل الجنة سيرى أناسًا من أهل الجنة بينه وبينهم كما بين السماء والأرض!

والعجيب أنه للمجاهدين -مثلًا- وحدهم مئة درجة، ما بين كل درجة والأخرى كما بين السماء والأرض! فنحن نتكلم عن شيء ومساحات مهولة جدًا؛ فلا يأتي في بالك أن الثواب يمكن أن ينفد، أن هناك إنسان -مثلًا- عمل أعمالًا كثيرة وحصَّل حسناتٍ معينة فانتهى واستنفد الحسنات، لا.

وفي نفس الوقت: الإنسان لا يأمن مكر الله سبحانه وتعالى ولا يأمن ذنوبه، فهنا تأتي الابتلاءات رحمةٌ من الله على الإنسان، كأنه الإنسان يأتي يوم القيامة صافيًا. الله سبحانه وتعالى لو مَنَّ عليك بالمحافظة على الصلاة والعبادات وهكذا؛ فهذه حسنات، لكن هناك سيئاتٌ كثيرٌ أثناء الطريق، وهناك تقصيرٌ كثيرٌ أثناء الطريق، وهناك غفلةٌ، وهناك شيطانٌ يوسوس... إلى آخره.

المشكلة أنك على قدر ما عندك من حسنات، على قدر ما تخشى أن تكون السيئات يوم القيامة هي السبب في تعطيل أثر هذه الحسنات. وهناك شيء مهم، أكثر الناس لا يحسبون له حسابًا: اللسان! لما نجلس نتحدث بكلام، وكلام، وكلام... اللسان من أهم الأسباب لذهاب الحسنات يوم القيامة "إنَّ المفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ" [صحيح مسلم/ ٢٥٨١] فيذهب ثواب الاعتكاف -والمقصود بضرب المثال بالاعتكاف كأعمال مرجوة-، وثواب قيام الليل، الذكر، الصلوات، كلها حسناتٌ تذهب! يأخذ كل منها فمستقل ومستكثر. وفي نفس الوقت: أنت إذا كان أُفتُرِئ عليك فأنت عندك باب لتأخذ من حسنات غيرك كذلك.

لكن ميزة الابتلاءات أنها تبعد عنك معيقات، ومثبطات الحسنات التي ستنتظرها في الآخرة، وربما يكون هناك ذنوب وذنوب وذنوب تخشى منها في الآخرة؛ تأتي فيقال مرضك في ذاك اليوم أسقط عنك كذا وكذا من السيئات. حالة الغم التي أصبت بها بسبب جار سيء، بسبب صديق سيء، بسبب زوجة سيئة، بسبب ابتلاء من أب، بسبب ابتلاء من أصدقاء، بسبب بغي عليك، بسبب افتراء في عرضك... إلى آخره. هذا الابتلاء الذي لم تكن تطيقه في الدنيا، هذا هو الذي أسقط الله عنك به سيئة كذا، وسيئة كذا...

في ذاك الوقت حين تنسى أصلًا مرارة الشدة؛ ستتمنى -يقينًا- لو طال البلاء، بعكس حالك في الدنيا أن تتمنى زوال البلاء، في الآخرة يقينًا لما ترى أثر البلاء تقول: يا ليته طال، فأنت إذا عشتَ ستين سنةً تأتي يوم القيامة وحده أضعاف عمرك كاملًا! فتذهب فكرة أنك عشت عمرًا طويلًا قبل بداية الحساب؛

لأن الناس تُبعث يوم القيامة وتنتظر زمنًا طويلًا، ثم يذهب الناس إلى الرسل يطلبون الشفاعة في بدء الحساب فقط؛ لأنه حال شديدٌ، الشمس تدنو، والخلائق تنتظر، فقط نريد أن يبدأ الحساب!

فأول شيء يكون قد بطُلَ عندك هو: أنك عشت عمرًا طويلًا، ومن أوائل الحقائق التي تدركها وستكون يقينية أمامك ونحن نؤمن بهذا إيمانًا لا شك فيه -بالبعث والنشور- فمن أوائل ما سيكون ثابتًا يقينًا أمام عينيك هو: أنك لم تعش، وأن فكرة العمر الذي كنت تراه طويلًا وقت الحياة تبددت، وتعرف أنك ما عشت، وخاصةً أهل الإجرام.

وهذا المعنى مذكورٌ في القرآن كثيرًا مكررًا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] تخيَّل المجرم الذي عاش ستين سنة؟ أو سبعين سنة؟ أو ثمانين سنة؟ بسُلطةٍ، وظلمٍ، وجبروتٍ، واستقبالٍ، ومواكبٍ... إذا مات على إجرامه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ ليس يومًا حتى، بل ساعة! ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]، وكذلك: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤]، في سورة أخرى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وفي سورة الأحقاف: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فهذا أول شيء يسقط عندك: فكرة الزمن الذي عشته؛ الزمن يتغير بكل ما فيه، أنت تدرك حقيقة أنك ما عشت شيء. نحن الآن في زمن العيش هذا نرى اليوم طويلًا، والأسبوع أطول، والشهر أطول، والسنوات أطول، وإذا عشت في حالٍ صعبةٍ فسترى أن الزمن لا ينتهي، وإذا جاءك ابتلاءٌ تتمنى لو أن كل شيء ينتهي، ولم يعد موجودًا.

فعندما يأتي يوم القيامة، أول شيء يزول: فكرة الزمن، ثم تستقبل الآتي. العجيب أنه لا يوجد شيء في يوم القيامة في الحساب اسمه مجهول؛ بل كل شيء يكون موجودًا: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩] وهذا على الله هين؛ لذلك في القرآن كثيرًا ذِكر أن الله سريعُ الحساب، لما ترى الحساب تعرف أن كل ما صار في الدنيا هو لأجل ذلك اليوم.

نحن الآن نقول: في الآخرة، باعتبار أن هناك شيء اسمه آخرة، لكن لما تكون في الآخرة تدرك أنها كل شيء، وأن الدنيا هي بالعكس، فتستغرب كيف كان هناك جزاءٌ في الدنيا ببعض الأشياء! الدنيا فيها أشياء بسيطة، بالنسبة لما يجري في الآخرة.

الكلام عن هذا كثير، لكن الشاهد: لما يأتي الحساب ويأتي الشهود عليك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، تخيل واحدٌ يشهد عليه جلده! ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ففي ذلك الوقت تحتاج إلى أقل شيء يعينك ويخفف عنك؛ لأنك قد عرفت أنه لا يفيد أب، أخ، ولا أحد، كله يفر.

فمن جملة ما يُعان الإنسان به في ذاك اليوم، وهذا موضع الشاهد كله: **الابتلاءات التي أُبتليت بها: أمراض، هموم، أحزان، طول طريق، شدائد، مصاعب، اتهامات، كلام، فقدان أحباب، خسارات مالية... إلى آخره**. مثل ما قال النبي ﷺ: "بهذه الساعة".

في ذلك الوقت، ستجد أن من سيئاتك التي كنت تخشاها وتخاف أن تؤاخَذ بها، قد أسقطها الله عنك بسبب هذه الابتلاءات، وهذه الأسقام.

وإن ذلك ليوم عظيم تُنصب فيه الموازين، وتُنشر فيه الصحف، إلى آخره من الأمور التي وردت في يوم القيامة.

الخاتمة:

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، ونسأل الله العافية، ونسأل الله الجنة، ونعوذ بالله من النار، ونحمد الله على كل حال، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم

وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم إنا نسألك الجنة، ونعوذ بك من النار، اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا، ودنيانا، وأهلينا، وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا. اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.